٦ - القناعةُ والزَّهادةُ:

التَّحلِّي بالقناعةِ والزهادةِ، وحقيقةُ الزهدِ[٢]: «الزهدُ بالحرام، والابتعادُ عن حِمَاه؛ بالكَفِّ عن المُشْتَبِهاتِ وعن التطلُّع إلى ما في أيدي الناس».

هذا هو الأدب السادس للطالب في نفسه وهو القناعة والزهادة
يرشدك يا طالب العلم التخلق بسجيتين من أكرم السجايا القناعة والزهد
القناعة: من قنع يقنع قنوعًا وقناعة بمعنى الرضا فالقانع هو الذي يرضى
بما أعطاه الله، ولو كان دون الكفاية، ويترك التشوف إلى
المفقود، ويستغني بالموجود، والقناعة راحة وسعادة
وأما الزهد فمعناه الاقتصار على الزهيد أي القليل وهو ~~القناعة~~ متقاربان
لكن القناعة تقال باعتبار رضا النفس.
والزهد باعتبار المتناول لحظ النفس.
وقد كان النبي صلى الله عليه يمر عليه الهلال ثم الهلال ثم الهلال ولا يوقد
في بيته نار. وربما ربط الحجرين على بطنه من الجوع، ويؤثر الحصير
في جنبه، وفي الحديث عند البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما أكل
آل محمد صلى الله عليه وسلم أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر».
وهذا أحمد بن حنبل رحمه الله وكان إمامًا في الزهد لما تولى المتوكل ورفع المحنة
دعا ابن حنبل ليسكن عنده في عاصمة الدولة ويكون عنده ويستشيره وكانت تأتيه
كل يوم مائدة فيها كل شيء فما كان يفطر عليها، يرسل إليه الخليفة المال فيرده
ويقول هو في كفاية فيرسل منها إلى أولاده فيرسل إليه أحمد هم في كفاية
وكان ربما يواصل السبع أيام لا يفطر فيها
وما كان يأكل إلا رغيفًا ولما دخل دار الخلافة ألبسوه قميصًا وقلنسوة وطيلسان
وهو لا يحرك يده ثم انصرف فلما رجع نزعها وجعل يبكي ويقول سلمت
من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم!
ما أحسبني سلمت ... الخ، ثم أمر ابنه ببيع الثياب والتصدق بثمنها
وكان يقول: لو كان نفسي في يدي لأرسلتها ثم يفتح أصابعه
«السير ج ٩ ص ٢٠٣، بتصرف»

بعض طلبة العلم يريد أن يكون في مصاف الأغنياء والمترفين هيهات هيهات
كيف تجمع بين ذلك وبين طلب العلم لو جاءت الدنيا من غير قطيعة بين
العلم وطالبه فلا بأس وإلا فلا تقدم فانتبه يا رعاك الله.

ثم بين لنا رحمه الله أن حقيقة الزهد هي الزهد بالحرام ...... إلخ"
ولكي تزهد في الحرام لابد أن تعلمه فتزهد فيه ليس الزهد لبس الخشن
وأكل الخشن وهو يلابس الحرام ظاهراً وباطناً بل حقيقة الزهد
هو تجنب الحرام من ربا وغش وغصب ورشوة إلى آخره
بل والابتعاد عن المشتبهات وهذا معنى والابتعاد عن حماه أي تجعل
بينك وبين الحرام مسافة كما في حديث يرعى حول الحمى يوشك
أن يرتع فيه،
كذلك لا تطلع إلى ما في أيدي الناس قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ولا
تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا
لنفتنهم فيه. ورزق ربك خير وأبقى﴾.
فمن نظر تطلع دقق ثم بيّن سيره إلى الله وانقطع فانتبه،

ويُؤْثَرُ عن الإمام الشافعيِّ رحمه الله تعالى[٣]:

«لَوْ أَوْصَى إنسانٌ لِأَعْقَلِ الناس؛ صُرِفَ إلى الزُّهَّاد».

صُرف إليهم نظروا إلى الدنيا فعرفوا حقيقتها ونظروا إلى الآخرة فعلموا نفاستها
فتجنبوا ما لا ينفعهم في الآخرة لذلك استحقوا وصف أنهم أعقل الناس

وعن محمد بن الحَسَن الشَّيْباني رحمه الله تعالى لمَّا قيل له: ألَا
تُصَنِّفُ كتاباً في الزُّهْدِ؟ قال:
«قد صَنَّفْتُ كتاباً في البُيوعِ»[٤].
يعني: «الزاهدَ من يتحرَّزُ عن الشُّبهاتِ، والمكروهاتِ؛ في

التجاراتِ، وكذلك في سائر المعاملاتِ والحِرَفِ» اهـ.

وعليه؛ فَلْيَكُن معتدِلاً في معاشِه بما لا يُشينه، بحيث يصونُ نفسَه وَمَن يعولُ، ولا يَرِدُ مواطنَ الذِّلَّةِ والهُوْنِ.

معنى كلام محمد بن الحسن رحمه الله تعالى أنى قد بينت ما يحل وما يحرم في البيوع فيتعلم الناس فيتركوا الحرام وهذا هو حقيقة الزهد فلا بد للزهد من علم وإلا حبنح بصاحبه الى الانحراف عن السنة.
وعليه وعليك بالتوسط في المعيشة بما لا يعيبك وتكتسب بقدر ما تصون به نفسك وأولادك ولا ترد مواطن الذله والهوان والله المستعان نسأله أن يرزقنا وإياكم الحلال

وقد كان شيخُنا محمد الأمين الشّنقيطيُّ المتوفى في ١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ رحمه الله تعالى مُتَقَلِّلاً من الدنيا، وقد شاهدتُه لا يعرفُ فئاتِ العملةِ الورقيةِ، وقد شافَهَني بقوله:

«لقد جئتُ من البلاد ـ شنقيط ـ ومعي كَنْزٌ قلَّ أن يُوْجَدَ عند أحدٍ، وهو (القناعةُ)، ولو أردتُ المناصبَ؛ لعرفتُ الطريقَ إليها، ولكنّي لا أُوثر الدنيا على الآخرةِ، ولا أبذلُ العلمَ لنيلِ المآربِ الدنيويةِ».

فرحمه اللهُ تعالى رحمةً واسعةً آمين.

ثم ذكر لنا الشيخ رحمه الله عن شيخه الشنقيطي عليه سحائب الرحمه بعضا من زهده وقناعته وتعففه عن الدنيا وهكذا يكون العالم الرباني لا يسأل الاستزاده بعلمه وإنما يطلب الله والدار الآخره

٧ ـ التَّحَلِّي بِرَوْنَقِ العلم:

التحلِّي بـ (رونق العلم) حُسْن السَّمْت، والهَدْي الصالح، من دَوَام السكينة، والوقارِ، والخُشوع، والتواضُعِ، ولزوم المَحَجَّة؛ بعمارة الظاهر والباطن، والتخلِّي عن نواقِضِها.

وعن ابن سيرينَ رحمه الله تعالى قال:

«كانوا يتعلَّمون الهَدْيَ كما يتعلَّمون العلم».

وعن رجاء بن حَيْوَة رحمه الله تعالى أنه قال لرجلٍ:

«حَدِّثْنا، ولا تُحَدِّثْنا عن مُتماوِتٍ ولا طَعَّانٍ».

رواها الخطيب في الجامع (١/١٥٦)

هذا هو الأدب السابع لطالب العلم في نفسه وهو التحلي برونق العلم أي زينته وجماله فهذه الصفات هي جمال لصاحبه عنوان على أخلاقه وحسن أدبه وحسن سمته أي ظاهره ودليل ثقته على محجة أهل العلم من دوام السكينة والوقار والخشوع والتواضع ولزوم المحجة بعمارة الظاهر والباطن فيكون ملازما لهذه الصفات مراقبا لقلبه حتى يعمر ظاهره وباطنه، ويتخلى عن نواقضها أي يتجنب عكس هذه الصفات الطيبة فإنه إن أتى بعكس صفة فقد نقضها.

وكان السلف يولون جانب الهدي عظيم انتباههم فقال ابن سيرين هذه المقولة الرائعة واصفا حالهم وأن الهدي والعلم لا يفترقان عند طالب علم السلف الصالح.

وكذلك قال رجاء بن حَيْوة لا تحدثنا عن متماوت يعني ذلك الذي يظهر الزهد في الدنيا بحركاته كأنه متماوت فذلك جاهلٌ لا يعرف حقيقة الزهد كذلك لا تحدثنا عن طعان ذلك الذي لا هم له إلا الطعن في الناس فلا يجد له همًّا إلا أعراض المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«يجبُ على طالب الحديثِ أن يتجنَّب: اللعبَ، والعبثَ، والتبذُّلَ في المجالس؛ بالسُّخْفِ، والضحكِ، والقهقهةِ، وكثرة التنادُرِ، وإدمان المُزاحِ والإكثار منه، فإنما يُستجاز من المُزاح بيسيرِهِ ونادرِهِ وطريفِهِ، والذي لا يُخرج عن حَدِّ الأدب وطريقةِ العلم، فأمَّا مُتَّصِلهُ وفاحشهُ وسخيفهُ وما أوغَر منه الصُّدورَ وجَلَبَ الشَّرَّ؛ فإنه مذمومٌ، وكثرةُ المزاحِ والضحكِ يَضَعُ من القَدْرِ، ويُزيلُ المروءةَ» اهـ. «الجامع» (١/١٥٦)

وقد قِيلَ: «مَنْ أكثرَ مِنْ شيء؛ عُرِفَ به».

فتجنَّب هاتيكَ السَّقَطاتِ في مُجالَسَتِكَ ومُحادَثَتِك.

وبعضُ من يَجْهَلُ يظنُّ أن التبسُّطَ في هذا أَرْيَحِيَّةٌ.

وعن الأَحْنَفِ بن قَيْسٍ قال:

«جَنِّبوا مجالسَنا ذِكْرَ النساءِ والطعامِ؛ إنِّي أُبْغِضُ الرجلَ يكون وصَّافاً لفرجِهِ وبطنِهِ»[٢]. «السير» (٤/٩٤)

وفي كتابِ المُحَدَّث المُلْهَم أمير المؤمنين عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه في القضاء:

«ومن تزيَّن بما ليس فيه؛ شانَهُ الله».

فكل ما ذكره الخطيب رحمه الله يُذهب رونق العلم وحشمته وعلى طالب العلم أن يجتنب ما يُنقص حشمته وما يُزري به في أعين الناس وتكون طريقته هي طريقة أهل العلم في لبسه وكلامه ونظراته ودخوله وخروجه وتكون مزاحه كالملح في الطعام، فإن من أكثر منه عُرف به وهذا ليس من طريقة أهل العلم. ثم يحذره من طريقة من يظن أن الإكثار من هذه

الأشياء هي أريحية "محمودة". كلا ليس الأمر كذلك بل هي تزري بالمرء وتزيل حشمته فلا يُقبل منه قول بعد ذلك.

ومن الأحنف بن قيس قال: "جنبوا مجالسنا ... الخ"

لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره فلا ينبغي للعقلاء أن يعمروا مجالسهم بذكر البطون والفروج فهذا دليل على علة في السير.

ثم ختم المؤلف كلامه في هذا الأدب بأثر عمر بن الخطاب

فإن عمر كتب كتاباً لأبي موسى رضي الله عنهما وكان قاضياً في [illegible] ووصفه بالمحدَّث لحديث "إن يكن فيكم محدثون فعمر" رواه البخاري

يعني أن عمر رضي الله عنه ملهم يجري الصواب على لسانه وقد وافق الشرع في حوادث كثيرة وقد كان في الأمم السابقة هؤلاء الذين يُكلمون من غير أن يكونوا أنبياء أي يلهمون إلى الرشد والصواب من غير أن يوحى إليهم فإن يكن أحد في هذه الأمة هكذا فهو عمر رضي الله عنه.

قال لأبي موسى: "ومن تزين بما ليس فيه شانه الله" يعني بعدما أمره بالترتيب بزينة أهل العلم في ملبسه ومدخله ومخرجه وفي كل حالاته حذر من الرياء والسمعة والكذب بالظاهر من لبس غير ثوبه وتزين بما ليس فيه فضحه الله نسأل الله العافية أعاذنا الله وإياكم من الرياء.

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

٨ ـ تَحلَّ بالمُروءةِ[٢]:

التحلِّي بـ (المروءة)، وَمَا يَحْمِل إليها؛ من مكارمِ الأخلاقِ، وطلاقَةِ الوجه، وإفشاءِ السلام، وتحمُّل الناس، والأَنفَةِ من غير كبرياءٍ، والعزَّة في غير جَبَروتٍ، والشهامة في غير عصبيَّةٍ، والحَمِيَّةِ في غير جاهليةٍ.

وعليه؛ فتنكَّب (خوارمَ المروءة)؛ في طَبْعٍ، أو قولٍ، أو عمل؛ من حِرْفة مَهِينةٍ، أو خَلَّةٍ رديئةٍ؛ كالعُجْب، والرياء، والبَطَرِ، والخُيَلاءِ، واحتقار الآخرين، وغشيان مواطن الرِّيَب.

هذا هو الأدب الثاني وهو التحلي بالمروءة ، وهي فعل ما يجملك ويزينك وترك ما يدنسك ويشينك
فأداء الواجبات يزينك
والتحلي بمكارم العادات هذا يزينك وبالعكس
فطالب العلم لابد أن يراعي عادات الناس ولا يخرج عنها قدر الإمكان ما لم تكن حرامًا
والذي يحمل على المروءة هو مكارم الأخلاق وهذا باب واسع جدًا
مكارم الأخلاق من كرم وحلم وبذل وإيثار وسكينة ووقار
فمكارم الأخلاق أن تعطي كل موقف حقه فتجد يتسامح وقت التسامح والشدة وقت الشدة وهكذا .
وتتحلى أخي الحبيب بطلاقة الوجه فتبسمك في وجه أخيك صدقة ، وإفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف .
وأن تتحمل ما تلقاه من الناس من أذى ولك في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ،
ويكون طالب العلم وسطًا بين هذين فلا إفراط ولا تفريط
فيكون ذا أنفة من غير تكبر ، وعزة من غير تجبر على الناس ، وشهم من غير تعصب لبلد أو عرق بل لكل المسلمين ،
ذو حمية لا لغيرها هلية بل حميته لدينه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لا لبلده وعرقه ولونه إلى غير ذلك مما هو مذموم .
ودائمًا ينبه على من يستمر مساعدة للارتقاء بنفسه وتزكية قلبه أن ينقض ما أبرمه فاذا به يخرم مروءته سواء في طبع أو قول أو عمل أو حرفة معينة لا ترقى بأهل العلم أو صفة ذميمة
كالعجب : فلا يعجب بنفسه ولا بعمله بل ينسب الفضل إلى الله تعالى .
والرياء : فلا يقصد بعمله غير وجه الله .
والبطر : فلا يرد الحق بعد ظهوره لهوى في نفسه .
والخيلاء : بل لابد أن يكون متواضعًا .
واحتقار الآخرين ، بل لابد أن يزري على نفسه .
وغشيان مواطن الريب ، فيسلم من ألسنة الناس ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة كما في حديث صفية رضي الله عنها لما ذهب

ليقلبها إلى بيتها وكان في مسجده فمرّ به صحابيان فقال على رسلكما فإنه صفية .

٩ - التمتُّع بخصال الرجولةِ :

تمتَّع بخصـال الـرجولةِ ؛ من الشجاعة، وشدّة البأس في الحقِّ، ومكارمِ الأخلاق، والبَذْلِ في سبيل المعروف، حتى تنقطعَ دونك آمالُ الرجالِ .

وعليه ؛ فاحْذَر نواقضَها ؛ من ضعف الجَأشِ ، وقلّةِ الصبرِ، وضعفِ المكـارم، فإنّهـا تَهْضِمُ العلمَ، وتقـطَعُ اللسـان عن قَوْلةِ الحقِّ، وتأخُذُ بناصيتهِ إلى خصومهِ في حالةٍ تَلْفَحُ بِسَمُومها في وجوه الصالحين من عبادهِ .

الأدب التاسع هو وصيته رحمه الله أن تكون رجلاً ذا شجاعة فلا يجبن عن اختيار الطريق ولا السير في الطريق، ويكون شديد البأس في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، متمسكاً بمكارم الأخلاق باذلاً للمعروف وإن تنكر لك الناس وأعرضوا عنك فهذا هو الرجل الذي تنقطع دونه آمال الرجال يقول الناس من مثل فلان ومن لنا أن نفعل مثل فلان.
وكعادته رحمه الله يحذرنا من نواقض ما ذكر من ضعف الجأش وقلة الصبر وضعف المكارم فهذه تجعلك تخرس عن قولة الحق في مواطنها اللائق بها وتأخذ بك إلى خصومة مع عباد الله، وفي الجملة لابد من تحمل الأعباء وأن يكون طالب العلم على درجة كبيرة من الصبر والتحمل والتجمل بمعالي الأخلاق لكي يرهم على طيب المحل ليستنير بالعلم.